ولى الدين يكن

«الحرية عدوة الملوك، وحبيبة الشعوب».

«مساكين أنصار الحرية يريدون أن يخلصوا العباد من الظلم فيقعون هم تحت الظلم».

ولى الدين يكن

الاسم: ولى الدين حسين سرى يكن

الميلاد: ١٨٧٣

المهنة: أرستقراطى – شاعر – موظف كبير

الوفاة: ١٩٢١

مع وصول محمد على باشا إلى مصر، تراكمت معه وحوله أسر تركية عديدة، منهم "إبراهيم" ابن أخت محمد على (و"يكن" تعنى باللغة التركية «ابن أخت») ولهذا سمى إبراهيم يكن.

الجد باشا، الأب باشا، وليس الأمر مجرد رتبة بل هم جزء من كيان الأرستقراطية الحاكمة.

أما الأم فهى ابنة أحد أمراء الشراكسة. وهكذا امتلك الفتى "ولى الدين" حسبا ونسبا ومكانة ومركزا مرموقا.

ولد فى ضاحية من ضواحى إستنبول، ثم أتى إلى مصر طفلا، حيث رعاه عمه على باشا حيدر وزير المالية بعد وفاة والده، أتوا له بمدرس خاص شأن أبناء الأكابر، ثم إلى "مدرسة الأنجال " (مدرسة خاصة اسسها الخديوى توفيق لتعليم أولاده وأولاد الأمراء، وكان الهدف منها ألا يختلط أبناؤهم بأبناء الشعب) أتقن العربية والتركية والفرنسية والإنجليزية وأحب الكتابة، وكتب فى مجلتى "القاهرة" و"النيل"، ثم أصدر مع يوسف بك فتحى جريدة "المقياس".

لكن هذا الاتجاه للكتابة والاشتغال بالصحافة (وهى مهنة لم تكن محترمة) أفزع الأسرة فقررت تكبيله بقيود وظيفة حكومية فعين فى "النيابة" ثم فى القسم الإفرنجى بالمعية السنية عام ١٨٩٣، ثم ترك مصر إلى إستنبول على زمن السلطان عبد الحميد "خاقان البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين"، كما كان يسمى نفسه. وتلقاه عمه محمد بك فائق عضو مجلس الشورى، الذى قربه من الأعتاب السلطانية فتقرر منحه الرتبة الثانية. لكنه أحس بظلم العثمانيين الظالم، وبافتقاد الحرية، وأحس أن هذا الإنعام عليه قيد وضعوه فى عنقه فعاد إلى مصر.

وأصدر جريدة "الاستقامة" ليعبر فيها عن سخطه على الظلم العثمانى، وتسلط السلطان، وقهر العرب، وكتب يقول: «أنا تركى، وأبغض عباد الله عندى هو تركى يعتدى على حقوق الغير، وأحب العرب حبا خالط الروح، وجرى مجرى الدم فى العروق، فأنا عربى الأدب والقلم، عربى النزعة، ومن أبغض العرب، أنا مبغضه».

وواصلت "الاستقامة" حربها دفاعا عن الحرية حتى قرر العثمانيون منعها من الدخول إلى جميع البلاد العثمانية فأغلقها، وكتب يودعها قائلا:

أرانى وحيدا والحوادث جمة
ألاقى طعانا جيشها وضرابا
أثبت أقدامى وأبرز صفحتى
لديها، ولا أرضى هناك حجابا
.....
شهيا وأسقيها الدماء شرابا
أذم فلا أخشى عقابا يصيبنى
وأمدح لا أرجو بذاك ثوابا

وتفزع الأسرة من هذا الاندفاع وتحمله حملا مرة أخرى إلى إستنبول حيث يقلد وظيفة كبيرة بهدف تقييد لسانه وقلمه، لكنه لا يسكت فينفيه السلطان إلى "سيواس".

وبعد سجن ونفى وعذاب يعود إلى مصر لينطلق وبأعلى صوت مدافعا عن الحرية، رافضا للظلم، مؤكدا انتماءه إلى ساحة الفقراء.

ويرتفع صوته.. نثرا وشعرا ومهاجما السلطان العثمانى وحاشيته قائلا:

بغال تسوس الأسد شر سياسة
ما ساس أسدا قبل ذاك بغال

ويقول:

فجاءوا يسوسون الأنام سياسة
سدى لم تسسها قبل ذاك البهائم
فكم عالم صاحوا به أنت جاهل
وكم جاهل قالوا له أنت عالم
صحا كل شعب فاسترد حقوقه
فيا ليت يصحو شعبك المتناوم

وعندما يكتب شوقى قصيدة يدافع فيها عن السلطان عبد الحميد.. يرد عليه ولى الدين:

وذكرت سكان الحمى
ونسيت سكان القبور
وبكيت بالدمع الغزير
لباعث الدمع الغزير
ولواهب المال الكثير
ونساهب المال الكثير

وعندما يطاح بعبد الحميد ويمارس من أطاحوا به ذات الإرهاب والقهر يهاجمهم:

أفلا يزال السوط حاكمكم
وأبو السياط بيلدز ذهبا
أفلا يزال الدهر يعجبكم
ضرب ومضروب ومن ضربا
ونقول أحرارا فنمدحكم
لا حر فيكم.. كلنا كذبا

ويشن ولى الدين يكن حملة عنيفة على رجال الدين الذين خضعوا للخليفة العثمانى المستبد ودافعوا عنه، فيقول: "إن العامة تحب الشيء إذا حببه إليها زعماؤها.. وزعماء العامة عندنا رجال الدين وهؤلاء يحبون أن يظلوا متحكمين فى الرقاب، وأن يبقوا عيالا

على الأمة، وأن يلثم الناس أيديهم، ويملأوا أكياسهم، ثم إن عبد الحميد اتخذ منهم شيعته وزادته، فما أقر هيبته فى القلوب، ولا ابتاع له المودات إلا هذا الرهط".

ثم يرتفع صوت هجومه على رجال الدين: "ولو جمعنا العمائم التى بالبلاد العثمانية وجعلنا بعضها فوق بعض لبنينا حصنا يعجز الأسطول الإنجليزى عن هدمه".

وعندما يقبض على الشيخ جميل الزهاوى بالعراق لمناداته بحرية المرأة ونزع الحجاب عنها يكتب ولى الدين: "يا أيها المسلمون.. أنا مسلم مثلكم يحزننى خسرانكم، ويشركنى معكم مصرعكم، إن هؤلاء الرجال الذين أثقلت هاماتهم العمائم أكثرهم لا يعقلون.. كان عبد الحميد يقتل الناس ويظلمهم وينفيهم وينهب الخزائن، وكل هذا حرام فى دينكم فما قام فى وجهه واحد منهم ناصحا أو رادعا، لكنهم اليوم وقد وسعتهم بلاد الحرية، يكرهون أن يروا حرا يتكلم، يهاجمون الساعل والماخط، والآكل والشارب، حتى لقد زهدونا فى الحياة، وهم أشد الناس بها تعلقا، فلا تجعلوا لهم سلطانا عليكم، فيكسبوا من خسرانهم ويسعدوا بشقائكم وأنتم لا تعلمون".

ويهيم الرجل بالحرية عشقا: "يا حرية، أنا عرفتك وهمت بك هياما.. فأنا صاحبك من قبل ومن بعد ولن أخاف بعد اليوم رقيبا".

ويتغزل فيها:

«نشتاق حرية فيؤسينا..

من دهرنا عن حبائها ضنن

أوهننا حبها وتيمنا.. حتى ترانا وشفنا الوهن».

ويقول: "الحرية طافت بلاد الله، فكلما دخلت أرضا أعتقت المعتقلين فيها، فلما طرقت تركيا اعتقلوها فى سجنها بيلدز". وعندما يطاح بعبد الحميد ويتولى حكام جدد ليستبدوا هم أيضا، يكتب فى أسى: «بالأمس كنا ننادى يا حرية.. يا حرية، يا حبيبة الشعوب، وعدوة المستبدين، ومرتع الآمال، ومسرح النفوس، وشفاء الصدور، وحياة الممالك، فلما استجابت دعاءنا، وأقبلت برضائها علينا، تجاذبنا ضفائرها، وتنازعنا حليها، ووصلنا القيود التى فكتها عن سواعدنا لنشد بها سواعدها».

ويمتد هجوم ولى الدين يكن من الدفاع عن الحرية، إلى الدفاع عن الفقراء والاشتراكيين وتحت عنوان "مقتل فرر" (اشتراكى أسبانى نفذ فيه حكم الإعدام) يكتب ولى الدين:

«هن ثلاث رصاصات رميت بأسبانيا، فجاوبت دويها بلاد الله، ثلاث رصاصات رمتها حكومة متمدينة، بمشهد من حكومات متمدينة، فقتلت رجلا متمدينا. حراً أشقته حريته، عارف أجهدته معرفته، ومنصف أرداه إنصافه.. و"فرر" أبى زعامة الفرد على الجمع، وكره أن يرى أناسا يرفلون فى ثيابهم المخملية يجرجرون أسيافهم، وتخفق على رؤوسهم خرق فوق قضبان يسمونها أعلاما، وأن تكثر حكومات الأرض من جمع هؤلاء فى أزيائهم المضحكة لتقتل أمثالهم.. رفض أن يرى إخوته أبناء آدم يتنازعون أكنافا من الأرض ليست لهم ولا لغيرهم ولكنها لكل الناس، ولهذا لا يجزع على "فرر" سكان القصور العالية ولا المدخرون للذهب والفضة، ولا سراة القوم، ولا الوزراء، ولا كبار الموظفين، وإنما يجزع عليه المنفيون فى أقاصى سيبيريا يعض الحديد على سواعدهم، والمقيمون فى ظلمات السجون فى سائر أقطار الأرض، ويبكى عليه كل من ذاقوا مرارة الظلم والاستبداد فى أسر المستبدين. يحزن عليه الأرمنى الذى قتل أقربوه فى مذابح الأناطولى، والتركى الذى ألقى ذووه فى لجج البوسفور، والعامل فى أعماق الموانى محروما من نور الشمس، ولطف الهواء، والفقير الذى يحس بالفاقة ولا يتجاسر على شكايتها، كل هؤلاء يندب "فرر" وكان "فرر" يندبهم».

وتصله رسالة من عامل عثمانى يدعوه إلى نصرة الطبقة العاملة.. صراحة وبلا مواربة، فيرد عليه ولى الدين فى كتابه العنيف والمرير معا "الصحائف السود" قائلا:

«أيها الأخ العامل... لبيك أهلاً.. هذا يمين الإخاء أمده إليك، فإن كنت خاطبا ودا، الود لك، وإن كنت شاكى ظلم فيراعى لسانك، وبيانى ترجمانك، وأنا وحياتى دريئة لك من المخاوف».

ويمضى ولى الدين ليهاجم الحكام والأغنياء معا: "ادخل إلى حجرة الوزير تجد بها الأوانى المذهبة فى نقوشها وتصاويرها على الخوان البديع، وهو مضطجع على مقعد أقل مسمار فيه أغلى من مالكه ثمنا وأنفس قدرا. هو يحسب أن العامل يدور كاللولب لا يجهده تعب، ولا يضنيه كد، ولو رآه فى معمله متفصدا عرقا مشمرا عن ساعدين مفتولين عزما.. لأخذه الروع ولخارت تلقاء ذلك المشهد المهيب قواه".

ويصف أحوال العمال قائلا: «الآن بين الحيطان السود، تحت سحب الدخان، أمام النار التى يزكيها الكير النافر، وتحت أعماق الأرض رجال شعث النواصى، غبر الوجوه، نبا عن

أجسادهم النعيم، وأجفلت عنهم السعادة، يخدمون بنى الإنسان كأن لم يكونوا هم من بنى الإنسان».

ثم يصيح فى وجوه الأغنياء "من أراد أن يظلم العمال فليستغن عن العمال، ليقل هؤلاء الكبراء، إننا فى غنى عن العمال، وإذا نزعنا عنا هذه الحلل الباهرة ملنا إلى المعامل وشمرنا عن سواعدنا فصنعنا لأنفسنا، وليصنع العمال لأنفسهم، وهناك يعلم كل عمله".

ثم يقول لصاحب «الرسالة»: "إن كان هذا يكفيك أيها الأخ العامل، فالحمد لله على خدمتك وخدمة إخوانى العمال".

ويحلم ولى الدين كأى شاعر أرستقراطى بمجتمع المستقبل، المجتمع الاشتراكى، ويصفه قائلا: «إنه مجتمع لو أنفقت أمواله فى تعليم الأولاد لصاروا كالأنبياء، ولو بذرت فى الأرض لنبتت السنابل ذهبا، ولو أنفقت على الفقراء لأصبح السائِلون يشترون ملابسهم من "ريبو" (أفخم محلات هذا الزمان) ويفطرون بالشوكولاته».

ويبقى بعد ذلك أن ولى الدين يكن لم يقل كل ما عنده، فهو يقول حزينا وصريحا: "إذا وهب الله أقوامنا من الترقى أكثر مما نالوه، وبقيت أنا حيا بينهم لكلمتهم بما خالج صدرى تصريحا لا تلميحا".

لكن حلمه هذا لا يتحقق، ولا يبقى لنا سوى تلميحاته، وإذا كان التلميح بكل هذه الحدة وبكل هذا الوضوح، ترى ماذا كان يمكن أن يكون التصريح؟